ثقافة الطفل فى العصر الحديث ثقافة مريضة

ثقافة الطفل فى العصر الحديث ثقافة مريضة

أ.د. عبدالغنى عبدالحميد رجب

www.nlswan.net

كان الطفل يستقى ثقافته قديمًا من حكايات الأم والجدة والخالة، وهى حكايات خيالية تحمل الإثارة والمتعة والقيم النبيلة، وتساعد على النمو النفسى للطفل والارتباط الأسرى والتعلق بالجذور، وفى المدرسة كانت المكتبة جزءًا لا يتجزأ من العملية التعليمية، وكانت قصص كامل كيلانى التراثية للأطفال، وكذلك القصص الدينى منبعًا خصبًا يغذى الطفل طوال حياته، ففى سنوات التكوين الأولى يتحدد مسار حياة الطفل. ومن ذلك الأساس الثقافى المتين ينطلق الطفل بعد ذلك فى سنوات الشباب ليقرأ طه حسين والعقاد وغيرهما من كبار المفكرين. وفى العصر الحديث لم تعد الأم تقص على طفلها الحكايات وتركته لكى يشاهد قنوات الرسوم المتحركة فى التلفاز بما تحمل من أفكار مريضة وقيم هابطة وسلوكيات خاطئة تُزرع فى نفس الطفل الذى يجلس أمام التلفاز وهو فى حالة تنويم مغناطبسى، فتتحول المادة المقدمة إليه من التلفاز إلى سلوك يحدد علاقته مع الآخرين. والتلفاز يقوم فعلاً بعملية تنويم مغناطبسى كاملة للطفل، حيث إن عملية التنويم المغناطيسى ما هى إلا مؤثرات صوتية وضوئية تؤدى إلى تنويم العقل الواعى وإيقاظ العقل الباطن، بهدف زراعة أفكار تتحول إلى سلوكيات. وهكذا يتم شحن الطفل المسكين بكل القيم الهابطة والتى ستحدد مصير فكره فى قادم الأيام، كما أن التلفاز يشحن مخ الطفل بمجال كهربائى ومغناطيسى يغير من كهربية المخ ومغناطيسيته الطبيعية؛ مما يجعل الطفل عدوانيًا قلقًا متوترًا مكتئبًا وقد يصاب بالصرع. وبعد أن يدخل الطفل المشحون بأفلام الرسوم المتحركة - وقد تحول التلفاز عينه إلى إدمان لا يستطيع أن يستغنى عنه - المدرسة يجد أن دور

المكتبة المدرسية قد توارى، ولم تعد هناك حصة للمكتبة كالسابق، وهو من الأصل لم تُزرع فيه فضيلة القراءة. ويبدأ فى تعلم الكمبيوتر والذى يستخدمه فى اللعب بالدرجة الأولى، وكلها ألعاب تدعو للعنف والقتل وإراقة الدماء، وفى هذه السن ينمحى الفرق بين الحقيقى والمتخيل فيستهين الطفل بحياة الآخرين، بل وبحياته أيضًا، فعندما يصل الطفل إلى مرحلة الشباب يكون قد ارتكب ما لا يقل عن أربعين ألف جريمة قتل سواء بمشاهدتها على التلفاز، أو بممارستها على الكمبيوتر. وعملية التنويم المغناطيسى يقوم بها الكمبيوتر كالتلفاز تمامًا، فيشحن الطفل بكل القيم الهابطة والسلوكيات الخاطئة. وفى أثناء ذلك يصطحب الأب ابنه لمشاهدة الأفلام السينمائية الهابطة التى تؤصل لغريزة العنف والعدوان والاعتداء على الآخرين، ويتقمص الطفل دور البطل، ويحاول أن يقلده ويحاكيه فى كل تصرفاته، وهو فى كل تلك الأمور يسعى للخلاص من سلطة الأب وقتل الأب معنويًا فيما يعرف بعقدة أديب، فلا يحترم أباه ويعتقد أنه من الجيل القديم الذى يجب أن ينتهى. وفى هذه الأثناء ينجذب الطفل إلى الأغنية الشبابية الحديثة بموسيقاها الصاخبة، والتى تؤكد عنده قيم التمرد على المألوف، وقد كانت أغنية "بحبك يا حمار" الأغنية المفضلة عند الأطفال منذ فترة وجيزة، وهكذا يصبح أبطال الأفلام الهابطة والمطربون الشباب هم القدوة والمثل، ويشعر الطفل بالاستعلاء على أبيه وأنه ليس النموذج العصرى كالمطرب والممثل، وأصبح لا يتقبل أية نصيحة من الأب، أو الأم، أو المدرس، فهؤلاء من الجيل القديم الذى يجب أن يثور عليه. وتهيمن الثقافة الغربية على الطفل حتى فى المأكل والملبس - فالطعام والزى ثقافة أيضًا - فيأكل الطفل الوجبات السريعة غير المغذية، ويطيل شعره الذى قد ينسدل على كتفيه وقد يضفره كالبنات، ويلبس من الأزياء كل ما هو غريب وشاذ ويتحول إلى شخص آخر حتى أنه ينكر ذاته. وبعد أن يكون الطفل قد تربى على غير أساس يقتحم مجال الإنترنت وهو محمل بكل ما هو غريب وشاذ من الأفكار. ويبدأ الطفل فى صنع ثقافته الخاصة وتبادل ثقافته مع ثقافة أقرانه الذين هم فى مثل سنه عن طريق الفيس بوك، ويصبح هو منتج الثقافة ومستهلكها بعد أن رفض كل الثقافات القديمة الرصينة، ويصبح الطفل على الإنترنت هو المؤلف والمخرج والصحفى والفنان، وكل هذه الأمور على غير أساس من لغة أو دين أو علم، فتكثر الألفاظ القبيحة على الإنترنت، وتزيد الأفكار الشاذة، وتصير الشائعات حقائق عند الطفل والأضاليل معلومات موثقة، ويكوّن الطفل على الإنترنت عددًا هائلاً من الأصدقاء الذين يتبادلون الفكر المريض، وانتشرت الفرق الشاذة التى لم تكن معروفة فى مصر من قبل مثل "عبدة الشيطان"، ومثل "الألتراس" الذى يعلى من قيمة الكرة حتى تصبح وكأنها عقيدة الإنسان ودينه، وتنتشر عن طريق الإنترنت المعلومات الخاطئة غير الموثقة، والتى يتقبلها الطفل كحقائق لا تقبل الجدل ولا المناقشة، وتتدنى لغة الحوار عند الأطفال والشباب إلى أدنى مستوى، فيصبح جدلاً وصراخًا وليس مناقشة أو حوار، وهكذا يصير الطفل مجرمًا وهو فى الأصل ضحية. وقد أدى الإنترنت إلى ظهور الطفل السياسى الذى يتكلم فى السياسة دون أن يدرى عنها شيئًا، ثم الطفل الثورى الذى يقوم بالمظاهرات، وقد علمه الإنترنت أن يستهين بحياته وحياة الآخرين، وقد أصبحت حياته وحياة الآخرين ما هى إلا لعبة من ألعاب الكمبيوتر، أو صورة فى فيلم سينمائى يقتلها البطل بسهولة وبدم بارد. وكما قال الفنان المسرحى قديمًا : "ما الدنيا إلا مسرح كبير"

أضحت الدنيا فى عصرنا الحاضر "ما هى إلا شاشة كمبيوتر صغيرة"، والطفل يمارس حياته كلها من خلال تلك الشاشة، وهى التى تحدد كل خطوة يخطوها وقد أدمنها إدمانًا يصعب الخلاص منه. وخلف شاشة الكمبيوتر اختفت إبداعات الطفل الذاتية من رسم، وموسيقى، وقراءة، وغناء، وممارسة هوايات مثل : الرياضة، وجمع طوابع البريد، والرحلات، فقد أصبح يطوف العالم داخل حجرته الضيقة المعتمة الباردة التى لا يدخلها الهواء من خلال شاشة الكمبيوتر، وصار الطفل يتلقى ثقافة مريضة، فأضحى كالمريض الفصامى (الشيزوفرينيا) الذى يعتنق أفكارًا خاطئة تؤثر فى حياته وتدمرها، وهو ليس فصامًا بالمعنى الطبى لكنه شبيه بالفصام من الممكن أن نطلق عليه علمياً اسم "الجنون المشارك"، فهو يشارك أقرانه على النت جنونهم ويعتنق أفكارهم، لكن الفارق بينه وبين الفصامى الحقيقى أن الفصامى يتحسن مع العلاج، أما الطفل فلا يتلقى علاجًا ويزداد سوءًا.